رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) حياته ومؤلفاته:

ولد ديكارت في مدينة لاهي غربي فرنسا ، ويمكن تقسيم حياته إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الاولى / التحق فيها بمدرسة الاباء اليسوعيين التي تعرف باسم (لافليش) ومكث ثمان سنوات ، درس خلالها اللغات القديمة والمنطق والأخلاق والرياضيات والميتافيزيقا .

المرحلة الثانية / غادر الى هولندا وعمل ضابطاً وتعرف هناك على أسحاق بكمان الذي كان له أثر كبير في حياته ، واستمر بالتنقل بين فرنسا وسويسرا وهولندا وايطاليا. ثم درس القانون في فرنسا وحصل على اجازة الحقوق. وفي سنة ١٦١٩ الى ١٦٢٠ عايش ديكارت تجربة عقلية فريدة إذ عزل نفسه عن الناس وعكف يتأمل حتى وصل الى نظريته في المنهج للبحث في العلوم.

المرحلة الثالثة / وفي هذه المرحلة أقام في هولندا ، وكتب أهم مؤلفاته:

١. (قواعد لهداية العقل ١٦٢٩) وهي رسالة في المنطق الجديد المعارض للمنطق الارسطي التقليدي.
٢. (رسالة في العالم ١٦٣١) قال فيها بدوران الارض.
٣. (مقال في المنهج ١٦٧٣) وفيه بين تاريخ أفكاره وخصائص منهجه.
٤. (التأملات في الفلسفة الأولى ١٦٤١) وهو كتاب في الميتافيزيقا .
٥. (مبادئ الفلسفة ١٦٤٤) وفيه عرض مبسط لفلسفته ، وبيان لمدى أختلافها عن القدماء.
٦. (رسالة في انفعالات النفس ١٦٤٩) وتهدف الى بيان السبيل العلمي للسيطرة على الاهواء والشهوات والوصول الى الحياة السعيدة الفاضلة.

ويعد كتاب (المقال في المنهج) هو الذي خلد أسم ديكارت في تاريخ الفكر الإنساني ، حيث ترآى له أن أول ما يلزم من أدوات التفلسف للإنسان الواعي هو الشعور بضرورة المنهج ، ثم إيجاده وتطبيقه في مجالي النظر والعمل معاً.

وفي عام ١٦٤٩ أصيب ديكارت بألتهاب رئوي ، ثم توفي سنة ١٦٥٠ وكان عمره (٥٤) سنة.

وقد كان لديكارت الفضل في بناء صرح الاتجاه العقلي الحديث ، والكثير من المؤرخين في الفكر الغربي يرون أن ديكارت هو الاب الروحي للثورة الفرنسية ، لما أحدثته آراؤه في الفلسفة

والعلم من هزة عنيفة فقوضت مذهب أرسطو ، وقضت على علم العصر الوسيط ، وأيدت سلطان العقل.

وكان التجديد الحقيقي الذي أستحدثه ديكارت في الفلسفة هو تحليل المبادئ ، فالفلسفة كما يراها هي دراسة الحكمة ، والحكمة علم واحد كلي ، هي تفسير جامع للكون أو نظام شامل للمعرفة البشرية. وليست الفلسفة مجرد مجموعة معارف جزئية خاصة وانما هي علم المبادئ العامة ، بمعنى أنها علم الاصول التي هي اسمى ما في العلوم.

- **المنهـــــــج**

تميز القرن السابع عشر بميزة هامة ، وهي عناية المفكرين فيه بمسألة المنهج أو الطريقة الواجب أتباعها في البحوث العقلية. والكتب في المنهج كثيرة متعددة في ذلك العصر ، فقد ظهر كتاب (الارجانون الجديد) لفرنسيس بيكون ، وبعدها بسنوات نشر ديكارت كتاب (مقال في المنهج) ، ونشر اسبينوزا رسالته (اصلاح العقل) ،وكتب ليبتنز عدة رسائل تحت عنوان (المنهج). إذن فالمنهج سمة من سمات القرن السابع عشر، وجميع مفكري ذلك العصر كانوا مؤمنين بفائدة المنهج وأثره في العلوم وفي الحياة.

وديكارت رأى ان البحث في المنهج هو أهم المشكلات وأكثرها عناية في مهمة الفيلسوف . فعرف المنهج (بأنه جملة قواعد مؤكدة ، تعصم مراعاتها ذهن الباحث من الوقوع في الخطأ ، وتمكنه من بلوغ اليقين في جميع ما يستطيع معرفته ، دون أن يستنفذ قواه في جهود ضائعة).

ويتسائل ديكارت عن فائدة الدراسات والبحوث التي لا نكتسب منها إلا آراء ظنية أو احتمالية. وهو يجيب عن التساؤل بما معناه أن الجهل التام خير من المعرفة المزعزعه الناقصة ، ولن يكون العلم علماً إلا اذا كان يقيناً ونموذج ذلك يقين (العلوم الرياضية).

ومن دراسته للرياضيات أستخلص أسس منهجه فقال " جميع الافعال الذهنية التي نستطيع بها أن نصل إلى معرفة الأشياء دون أن نخشى الزلل عبارة عن فعلين أثنين هما الحدس والاستنباط".

أ. الحدس عند ديكارت : هو الرؤية العقلية المباشرة التي يدرك بها الذهن بعض الحقائق التي يعتقد فيها الانسان ولا يتطرق إليها الشك. فالحدس نظرية عقلية بلغت من الوضوح والتميز أن زال معها كل شك ، وهذا الفعل لا يتعلق بالحواس ولا الخيال ، وانما يختص بالذهن.

ب. الاستنباط : قوة نفهم بها حقيقة من الحقائق نتيجة حقيقة أخرى أبسط منها . وهو فعل ذهني بواسطته نستخلص من شئ لنا به معرفة يقينية نتائج تلزم عنها.

قواعد المنهج الديكارتي

ويستخلص ديكارت اربع قواعد للمنهج في كتابه (المقال في المنهج) من خلالها نضفي على بحوثنا يقين العلوم الرياضية:-

١. قاعدة البداهة والوضوح :- أن لا نشتغل الا بمعان واضحة ومتميزة ، اي معان مضمونها بديهي كل البداهة (لا نسلم بشئ مالم نعلم انه حق).

٢. قاعدة التحليل :- وهي تقسيم كل مشكلة نتناولها بالبحث الى اكبر عدد ممكن من الاجزاء بمقدار ما تدعو الحاجة الى حلها . (وهنا يعني تقسيم المشكلات التي ندرسها بالتحليل للوصول من المركب الى البسيط).

٣. قاعدة التركيب :- أن نسير بأفكارنا بنظام أي نبدأ بأبسط الموضوعات وأسهلها معرفة ، ونرتقي الى اكثر الموضوعات تركيبا). فإذا وصل العقل الى العناصر البسيطة صار عليه أن يسلك في أتجاه معاكس للسابق ، أي أن يبدأ من المبادئ والمعاني البسيطة ويمضي منها إلى نتائجها ، وينتقل من العناصر الى المركبات ، فيطلع بذلك على تكوين الأشياء.

٤. قاعدة الاحصاء :- أن نقوم في كل مسألة بأحصاءات شاملة ، مما يجعلنا على ثقة من أننا لم نغفل شيئاً. أي ان هذه القاعدة ترمي الى استيعاب كل ما يتصل بمسألة معينة ، وترتيب العناصر التي توصلنا اليها. وتفيد في التحقق من صدق النتائج.

- **تعريف الفلسفة عند ديكارت**

ويعرف ديكارت الفلسفة بقوله : " إن كلمة فلسفة تعني دراسة الحكمة. ولم نقصد بالحكمة مجرد الفطنة في الاعمال ، بل معرفة كاملة بكل ما في وسع الإنسان معرفته بالإضافة إلى تدبير حياته وصيانة صحته وأستكشاف الفنون. ولكي تكون هذه المعرفة كما وصفنا ، فمن الضروري أن تكون مستنبطة من العلل الأولى ".

ويقسم ديكارت هذه العلل اقسام ؛ الميتافيزيقا وتشتمل على مبادئ المعرفة التي منها تفسير اهم صفات الله وروحانية نفوسنا وجميع المعاني الواضحة المتميزة الموجودة فينا. والقسم الثاني العلم الطبيعي – وفيه نفحص عن تركيب العالم على العموم، ثم على الخصوص عن طبيعة هذه الارض وجميع الاجسام .. وبالأخص عن طبيعة الانسان ، ليتسنى لنا اكتشاف جميع العلوم النافعة له.

وبذلك فالفلسفة بمثابة شجرة، جذورها الميتافيزيقا ، وجذعها العلم الطبيعي ، وأغصانها سائر العلوم. وهذه العلوم ترجع الى ثلاث علوم كبرى هي الطب والميكانيكا والاخلاق.

- **الشـــــــك واليقين**

بعد المنهج ، لا بد من تطبيق قواعد المنهج ، ولما كان هدف ديكارت هو بلوغ اليقين الذي يقيم عليه بناء العام كله ، فقد صمم على ان يشك في كل ما تعلمه من قبل ،وأن يمضي في هذا الشك الى ابعد حدود فيقول :" للفحص عن الحقيقة يحتاج الأنسان مرة في حياته الى ان يضع الأشياء جميعاً موضع الشك بقدر الامكان ".

فالشك يعتبر نقطة البداية في البحث عن اليقين ، فهو يشك في كل شئ ، يشك في الحواس لأنها تخدع احياناً، ولعلها تخدع دائماً، وليس من الحكمة الأطمئنان الى خدعنا ولو مرة. ومن ثم أستبعد ديكارت شهادة العقل نفسه ، لأن بعض الناس قد يخطئون في الاستدلال ولو في أبسط قضايا الهندسة. وهكذا أستبعد ديكارت شهادة الحواس ، بل وشهادة العقل نفسه.

والانسان كما يرى ديكارت اذا شك في كل شئ فأنه يكون قد تهيأ للوصول اليقين الاول ، وهو يقين النفس (الكوجيتو).

ولا يجد ديكارت شيئا يقاوم الشك ، فهو يقول أنه يشك في كل شيء ، ماعدا شكه ، ولما كان الشك تفكيراً فأنه يفكر ، ولما كان التفكير وجوداً فأنه موجود ، فيقول :"أنا أشك إذن أنا أفكر ، و أنا أفكر إذن أنا موجود ". ويرى أنها ميزة نادرة أنه يدرك فيها الوجود والفكر متحدين أتحاداً لا ينفصم. إذن ديكارت يربط الوجود بالفكر بمعنى ان الانسان طالما يفكر أي يشك فهو موجود ومتى ما توقفت عملية الشك أي توقف التفكير ، أنتهى وجود الانسان.

إن الشك المنهجي لا يرمي الى هدم امكانية المعرفة – كما هو الشك المذهبي – بل هو يرمي على العكس ، للوصول الى المعرفة اليقينية وإقامتها على أسس سليمة.

فيقول ديكارت :" كل ما عرفت حتى الساعة هو أنني شيء مفكر . وسأحاول الآن أن أوسع مجال معرفتي . أنا مستيقن أني شيء مفكر ، فما هو شرط هذا الاستيقان؟ و ماعلامة هذه المعرفة الحقة ؟ شرطها وعلامتها هو كونها واضحة كل الوضوح ، فكل ما اعرفه بهذا الوضوح فهو حق لأنه لو كان شيء مما هو معروف بمثل هذا الوضوح خطأ لكانت قضية (أنا سيء مفكر) قضية غير صحيحة".

من هذا اليقين ، يقين الذات المفكرة ، أستخلص ديكارت جميع الحقائق الأخرى : أستخلص أولاً التمييز الحاسم بين النفس والجسم ، وأستخلص أيضاً أن جوهر النفس هو الفكر وأن جوهر الله هو الكمال.

- الله والحقيقة

إن الفلسفة الديكارتية قد سلكت مسلكاً فريداً في التاريخ الفلسفي ، إذ أن ديكارت سار من النفس الى الله مباشرة وبغير واسطة . فيرى أن هناك فكرة تفوق حقيقتها الموضوعية كل مافينا ، بحيث لا نكون نحن علة هذه الفكرة ،وبالتالي نعلم أننا لسنا وحدنا في العالم ، والحقيقة يقول ديكارت اني اجد فكرة الله بين افكاري ، أي فكرة موجود كامل لا متناه. ويقدم ديكارت ثلاث أدلة على وجود الله :

١. الدليل على وجود الله من النفس ، فانا موجود وفي نفسي فكرة (الكائن الكامل).أي جوهراً لا متناهياً ، وأزلياً ، و لا يمكن ان يتغير ومستقلاً ،لديه المعرفة الكاملة

والقدرة الكاملة ، خلق كل شيء. فلو كان الكامل غير موجود لكان كل شيء مفتقر لموجد .

٢. ويشبه الدليل الثاني ، الدليل الاول ، ويذهب فيه ديكارت الى القول بأن من يعرف شيئاً اكثر كمالاً من نفسه لا يمكن ان يكون وجوده ، ولأنه لا يمكن أن يعطي المعرفة لنفسه بنفسه ، فلابد أن يأتي من موجود كامل بصورة لا متناهية .

٣. أما الدليل الثالث فهو إحياء للدليل الانطولوجي الذي قدمه القديس أنسلم في العصور الوسطى، فيقول ان التصور الخالص لموجود لا متناه وكامل بصورة مطلقة يتضمن منطقياً وجود هذا الموجود . أي ان الوجود متضمن بصورة حتمية في الله ، مثل النتيجة التي تقول أن زوايا المثلث الداخلية الثلاث تساوي زاويتين قائمتين فهي تنتج من تعريف المثلث.

فديكارت يرى أننا حين نبحث في أفكارنا ، نجد أن فكرة الكمال موجودة ضمن افكارنا ، ولا يمكن أن نكون نحن علة هذه الفكرة لأننا نواقص ، ولأننا ننشك فلا يمكن أن نتصف بالكمال ، وكذلك الاشياء الخارجية من حولنا فهي ناقصة أيضاً ومتغيرة ، ولا يمكن أن نجمع النواقص ونكون منها فكرة الكامل لأنها أصلاً ناقصة ، إذن فالكمال بالضرورة يتضمن فكرة الوجود إذن الله موجود.

ويقسم ديكارت الجواهر الى ثلاث (الله ، الفكر ، الامتداد) ؛ فالله هو الخالق الذي يوجد بذاته ولا يحتاج الى غيره . والفكر والامتداد فهي جواهر مخلوقة من قبل الله الجوهر الاول.

ويعرف ديكارت الجوهر في كتابه (مبادئ الفلسفة) : بأنه شيء موجود لا يحتاج الى شيء سوى نفسه لكي يوجد. ويشير ألى ان هذا التعريف ينطبق تماماً على الله فقط ، من حيث أنه موجود يقوم بذاته على نحو مطلق. إلا أنه يضيف أننا يمكن أن ننظر إلى العقل والمادة على أنهما جوهر بمعنى ما ، لأنهما لا يحتاجان إلا إلى عون من الله لكي يوجدا . إن كلاً من العقل والمادة كاملان ، ومكتفيان بذاتهما ، وكلاً منهما له صفة واحدة أساسية ، الاول صفة التفكير ، والثانية صفة الامتداد.

أما العلاقة بين هذه الجواهر الثلاثة ، فيرى ديكارت أن الله هو خالق العقل والمادة ، فهو الذي أوجدهما في المكان ، ويستمر في حفظهما في الوجود. فهما يعتمدان عليه ، في حين أنه لا يعتمد عليهما . والله يختلف عن الارواح الاخرى في كونه لا متناهياً وموجوداً بذاته. لقد خلق

الله المادة والارواح المتناهية وفقاً لغاياته ، غير أن العلماء والفلاسفة لا يمكنهم أن يكتشفوا الغايات الألهية ، ويجب عليهم أن يحصروا أنفسهم في دراسة العلل الفاعلة .

- العالم وقوانينه

ينتقل ديكارت الان الى وجود العالم ويسأل نفسه : هل الماديات موجودة؟ ويجيب بأنها موجودة. ويقدم الاسباب ، فأولاً هذه الاشياء ممكنة ، والله يستطيع أحداث الممكنات . ثم أن فينا قوة حاسة هي قوة أنفعالية تحتاج الى قوة فعلية تثير فيها أفكار المحسوسات. وهذه القوة الفعلية ليست فينا ، لأننا جواهر مفكرة، وهذه القوة ليست مفكرة، وبالتالي فهي خارجة عنا.

إذن وجود الله هو الذي يضمن وجود العالم الخارجي لكن العالم الخارجي لا يمكن أن يكون وجوده الحقيقي على نحو ما نعرفه بحواسنا ، لأن الحواس إنما هي أفكار غامضة مبهمة لا تؤدي الى اليقين . والضمان الالهي يفيد في أن ما يصح أن يوجد حقاً إنما هو مايكون موضوعاً لفكرة واضحة متميزة . فأذا بحثنا لم نجد في تصورنا للعالم الخارجي الا فكرة واحدة متميزة هي فكرة " الامتداد" ، الامتداد وحده هو الصفة الاولى ، وهو جوهر الجسم المستقل عن جوهر النفس.

يتبين مما سبق ، أننا لا نعرف العالم الخارجي ، معرفة مباشرة بالحواس ، ولا ندركه إدراكاً كما هو في ذاته ، وكل ما نعرفه عنه هو الصورة الذهنية والأفكار التي في أذهاننا . أما أن هذه الصور والأفكار مطابقة لموجودات حقيقية لا وهمية ، فهذا ما لا نعلمه إلا بالواسطة ، أي بفضل " الصدق الالهي ".

إذن العالم المادي عند ديكارت هو الممكنات التي خلقها الله ، والعالم عبارة عن أمتداد غير متناهي لأنه هندسي ، وهذا الامتداد يحصل في المخيلة ، بحيث تفسر كل حركة بأن الجسم المتحرك يطرد الجسم المجاور له ليحل في مكانه . وهكذا الى ما لانهاية. فالحركة في العالم دائرية . والمادة متحركة حركة متصلة : حركها الله منذ الخلق ، وشرع للحركة قوانين.

هذه القوانين تستنبط من فكرة ثبات الله ، وأولها (أن كل شيء يبقى على حاله طالما لم يعرض له ما يغيره) ؛ ومن هذا القانون يلزم قانونان:

١. أن مقدار الحركة يبقى هو هو في العالم لا يزيد و لا ينقص .

٢. أن كل جسم متحرك فهو يميل الى الاستمرار في حركته على خط مستقيم.

وهذه القوانين الثلاث تنطوي على جميع قوانين الحركة ، وكلها ثابته بثبات الله. وكان من فعل الحركة في المادة أن تكونت السماء والارض والمذنبات والكواكب والشمس والنجوم الثوابت والضوء والجبال والمعادن والنباتات والحيوانات والاجسام الانسانية. والله رتب الاشياء بمحض ارادته الحرة.

- النفس والجسم

ما العلاقة بين النفس البشرية والعالم الخارجي ؟ أن النفس تستقبل إحساسات وأفكاراً غامضة نتيجة الموضوعات الخارجية وأعضاء الجسم المختلفة للأعصاب . وتسبب النفس حركات تحدث في الجسم عن طريق الارادة ، كما الحال في المشي والكلام . وتتصل النفس بالأشخاص الاخرين عن طريق الاعضاء الجسمية . والجسم يؤثر احياناً في النفس ، وتوجه النفس في احيان اخرى الجسم أي أن التأثير متبادل .

إذن الانسان كما يرى ديكارت مؤلف من نفس وجسم ، اي من جوهرين متمايزين متضادين . النفس روح بسيط مفكر . والجسم أمتداد قابل للقسمة.

ويرى ديكارت أنه من المحتمل أن تكون هناك نقطة واحدة تلتقي فيها النفس والجسم . ومن المرجح أن يكون هذا الموقع هو الغدة الصنوبرية . وقد اختار هذه الغدة لأنها بسيطة في بنائها ؛ فهي لا تتكون من فصين مثل الأجزاء الاخرى من المخ .

اذن الانسان هو امتداد وفكر ، الامتداد يمثل البدن ،والفكر هو النفس ، والاتحاد بينهما يتم بالغدة الصنوبرية حين يحصل تأثير ما، فأن النفس تستجيب له ويحصل الانفعال ، وينتقل هذا الانفعال للجسم حيث توجد الارواح الحيوانية التي تمر بالغدة الصنوبرية وأثناء مرورها تؤثر في النفس ، فينفعل الانسان.

- نص فلسفي من كتاب مقال في المنهج

يقول ديكارت : "ولكن ، كان مثلي كمثل رجل يسير وحده في الظلمات فصممت على ان أسير الهوينى ، و ان استعين بكثير من الاحتياط في كل الامور ، فلو لم اتقدم الا قليلا جدا ، كنت على الاقل قد سلمت من الزلل ، لو أشأ البته أن أبدأ بأن أنبذ جملة أي رأي من الآراء التي قد تكون أستطاعت في بعض الاوقات أن تتسرب الى اعتقادي ، دون أن يقودها اليه العقل ، من قبل أن أكون قد صرفت ما يكفي من الزمن لوضع مشروع للعمل الذي أتولاه ، ولان أتحرى المنهج الحق للوصول الى معرفة كل الامور التي يكون عقلي اهلا لها..... وكما أن كثرة القوانين كثيراً ما تهيء المعاذير للنقائص ، بحيث تكون الدولة خيراً حكماً ونظاماً ، عندما لا يكون لديها من القوانين الا القليل جدا ، فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة. كذلك أعتقدت أنه بدلاً من هذا العدد الكبير من القواعد التي يتألف منها المنطق ، فالأربع التالية حسبي ، بشرط أن يكون عزمي على ألا أخل مرة واحدة بمراعاتها صادقاً ودائماً .

الاولى : ألا أقبل شيئا ما على أنه حق مالم أعرف يقينا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور والسبق الى الحكم قبل النظر ، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتمييز ، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضوع شك.

الثانية : أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها إلى أجزاء على قدر المستطاع ، على قدر ما تدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه.

الثالثة : أن أسير بأفكاري بنظام باديا بأبسط الامور وأسهلها معرفة كي أتدرج قليلاً حتى اصل الى معرفة أكثرها تركيبا ، بل و أن افترض ترتيبا بين الامور حتى لا يسبق بعضها الاخر بالطبع.

والاخيرة : أن اعمل، في كل الاحوال ، من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئا.

هذه السلاسل الطويلة من الحجج ، وكلها بسيطة وسهلة ، التي اعتاد اصحاب علم الهندسة الاستعانة بها للوصول الى اصعب براهينهم ، يسرت لي أن اتخيل أن كل الاشياء التي يمكن ان تقع في متناول المعرفة الانسانية تتتابع على طريقة واحدة ، وانه اذا تحامى المرء قبول شيء منها على انه حق مع انه ليس حقا ، واذا حافظ دائما على الترتيب اللازم لاستنباط بعضها من بعض ، فانه لا يمكن ان يوجد بين تلك الاشياء ماهو من البعد بحيث لا يمكن ادراكه اومن الخفاء بحيث لا يستطاع كشفه."

من كتاب مقال عن المنهج لـ رينيه ديكارت - من ص ١٢٦-١٣٣

ترجمة محمود محمد الخضيري

الطبعة الثانية ١٩٦٨ القاهرة